الجوانب الحضارية والاجتماعية و الاقتصادية عند ياقوت الحموي (٦٢٦ه) من خلال كتابه معجم البلدان (الجزء الاول)

م.د ناصر حسين كاظم القريشي
كلية الامام الكاظم (ع)

ملخص البحث

يعد ياقوت الحموي احد اعلام التاريخ العربي الاسلامي لما صنعه من مؤلفات وجهت اليه أنظار المؤرخين والباحثين قديماً وحديثاً فكانت العديد من الدراسات التي اهتمت بحياته ونشأته واخلاقه وصفاته ومقومات شخصيته وعصره وشيوخه ومؤلفاته واغلب هذه الدراسات وصفت ياقوت انه اديب وجغرافي واغفلت عن وصفه مؤرخا مما اثار اهتمامنا وآثرنا تقديم هذه الدراسة ، وتأتي اهميتهما من خلال ما تضمناه من معلومات سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية وادبية فضلا عن المادة التاريخية لاعتماده في التأليف على مصادر تاريخية، فعلى الرغم من ان معجم البلدان هو من المعجمات الجغرافية الا انه تضمن معلومات تاريخية، ويعتبر حلقة وصل بين علمي التاريخ والجغرافيا، وفي دراستنا هذا سننظر للجوانب الحضارية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية التي تناولها الحموي في معجم البلدان.

و تبرز اهمية البحث من خلال ما تناوله ياقوت الحموي من الجوانب الحياتية المهمة من تفاصيل عن الواقع الحضاري والاجتماعي والثقافي والاقتصادي التي لطالما خضعت لعدم الاهتمام من ناحية الدراسة التاريخية ولقلة الدراسات في هذا المجال وأيظاً لتسليط الضوء على تلك الجوانب من التاريخ القديم حيث تعتبر المعلومات التي اوردها الحموي في كتابة معجم البلدان الجزء الأول ذات اهمية تاريخية بل وما زال بعضها قائم في الوقت الحالي لذلك سلطت هذا الدراسة لبيان تلك الاهمية ، أن مثل هذه الدراسة تفتقر في معرفة التفاصيل التاريخية عن اغلب المؤلفات التاريخية لذلك ولاعتبار كتاب معجم البلدان القاموس الجغرافي التاريخي الأغلب للدراسات التاريخية تم اختياره ووضعه تحت مرصد الباحث للتوصل الى تفاصيل منهجية الكتاب وما تناوله ياقوت الحموي من تفاصيل حضارية و اقتصادية واجتماعية وفكرية في معجم البلدان الجزء الأول .

تم تقسيم الدارسة الى مقدمة و ثلاثة مباحث ، المبحث الأول تناول نبذة عن حياة المؤرخ ياقوت الحموي ، اما المبحث الثاني فتناول الجانب الحضاري والاقتصادي في كتاب معجم البلدان الجزء الأول ، أما المبحث الثالث فقد تناول الجانب الاجتماعي والثقافي والفكري في معجم البلدان الجزء الأول ، ثم الخاتمة التي فيها أهم الأستنتاجات التي توصل أليها الباحث ، ثم قائمة المصادر والمراجع التي تم تسطيرها حسب التسلسل الهجائي للحرف العربي وتم تنظيمها حسب التسلسل الأكاديمي .

و تعد هذه الدراسة أستثنائيه كونها أختصت بدراس مصدر واحد لذلك أعتمدت على كتاب معجم البلدان الجزء الأول الطبعة الأولى لسنة ١٣٢٣ هـ مطبعة السعادة مصر

، حيث وصف ياقوت كتابه بقوله : " ان كتابي هذا أوحد في بابه، مؤمر على اضرابه ..."[1]، ووصفه أهل المعرفة انه: "دائرة معارف جغرافية مهمة"، وانه منجم للمعرفة الجغرافية، ولم يقتصر فيه ياقوت على دراسة جزء معين من العالم الإسلامي فوزع ترجمته للمواضع بالسوية على العالم الاسلامي والشرق الأقصى أي انه يشمل وصف لكل العالم الذي عرفه المسلمون من الاندلس الى بلاد ما وراء النهر والهند والحال التي كانت عليه في القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي[2]، فجاءت مادته متنوعة .

وعليه نستطيع ان نصف معجم البلدان بالموسوعة والجدير بهذه الصفة من حيث المضمون والترتيب فقد تضمن معلومات جغرافية وتاريخية وادبية واجتماعية واقتصادية وسياسية وادارية فضلاً عن المعتقدات الدينية التي كانت سائدة قبل وبعد الاسلام، وبين المواقع التي عرفها العالم الاسلامي أنذاك، اما من حيث الترتيب فقد رتبها على حروف المعجم وهو ترتيب سهل وسلس للمستفيدين منها وكتبها بأسلوب ادبي رائع ينم عن اتقان للغة العربية وموثقة بمصادر معروفة معتمدة ، لكون هذا البحث يسلط على مصدر واحد فقط ولقلة الدراسات التي تبنت الدراسة في كتاب معجم البلدان الجزء الاول ، واجهت الباحث صعوبات في وأعداد البحث.

الكلمات المفتاحية: الجوانب الحضارية، الجوانب الاجتماعية، معجم البلدان، الجوانب الاقتصادية، قطاعات الانتاج.

The cultural, social and economic aspects of Yaqut al-Hamawi (626 AH) through his book Dictionary of Countries (Part One)

Asst. Dr. Nasser Hussein Kadhim Al-Quraishi

College Imam Al-Kadhim (peace be upon him)

Abstract

Yaqut al-Hamawi is considered one of the figures of Arab-Islamic history because of the books he wrote that attracted the attention of historians and researchers, past and present. There were many studies that focused on his life, his upbringing, his morals, his qualities, the elements of his personality, his era, his sheikhs, and his writings. Most of these studies described Yaqut as a writer and geographer, and neglected to describe him as a historian, which aroused our interest and influence. Providing a study in this regard through a comparison between his approach in his most prominent and famous books, which are the two dictionaries of writers and countries. Their importance comes from the political, economic, social, cultural and literary information they contain, as well as the historical material due to his reliance in writing on

historical sources, although the dictionary of countries is one of the dictionaries. Geography, but it includes historical information, and is considered a link between the sciences of history and geography. In our study, we will look at the social, cultural, and economic aspects that Al-Hamawi addressed in his Dictionary of Countries.

The importance of the research is highlighted by the important aspects of life that Yaqut Al-Hamawi covered, including details about the social, cultural and economic reality, which have always been subject to lack of attention in terms of historical study and the lack of studies in this field, and also to shed light on those aspects of ancient history, as the information provided by Al-Hamawi in... The writing of the Dictionary of Countries, Part One, is of historical importance, and some of it is still in existence at the present time, so this study was presented to demonstrate that importance.

One of the reasons for choosing the topic, as we mentioned in the importance of research, is that such topics lack sufficient studies that delve into knowledge of the historical details of most historical writings. Therefore, because the book Dictionary of Countries is considered the historical geographical dictionary of most historical studies, it was chosen and placed under the researcher's observatory in order to arrive at details of the book's methodology and what it dealt with. Yaqut al-Hamawi, from economic, social, and intellectual details in the Dictionary of Countries, Part One. Study plan: The study was divided into an introduction and three sections. The first section dealt with an overview of the life of the writer Yaqut al-Hamawi. The second section dealt with the economic aspect in the book Dictionary of Countries, Part One. The third section dealt with the social, cultural, and intellectual aspects in Dictionary of Countries, Part One, then the conclusion and a list of sources. And references.

The researcher reached the most important conclusions, which are: Abu Abdullah, Yaqut bin Abdullah Shihab al-Din al-Baghdadi al-Hamawi al-Rumi, a geographer and historian of Roman or Greek origin, who was born in an unknown place around the year 1179 AD, and died in Aleppo in Syria in the year 1228 AD. He was bought by a merchant called "Askar." From Hama, when he was still a child, he was not fluent in his native language, so much so that it was difficult to determine its origin. Then his master taught him Islamic etiquette and jurisprudence. He wanted him to become a writer and accountant for him in his trade, and he would accompany him on his travels, or send him alone on commercial missions, until Yaqut visited many Islamic cities, then his

master freed him and kept him away from work, so he worked copying books for a while, then returned to his master's service, and traveled with his trade. Once again, when he returned from there, he found that he had died, so he took his share of his trade, which enabled him to trade on his own account, and he began to move between countries with his new trade, visiting the cities of Iraq, the Levant, Turkey, Iran, and Iraq.

Al-Hamawi arranges the cities and countries in this book on the basis of alphabetical order, and gives a historical overview of each city, an overview of its location, the castles and ports in it, and an overview of its residents, especially the famous ones. It is one of the important sources on which the study relied on the geographical aspect.

Keywords: cultural aspects, social aspects, countries' dictionary book, economic aspects, production sectors.

المبحث الأول

سيرة وحياة ياقوت الحموي (ت ٦٢٦ هـ/١٢٢٨م)

اولاً : اسمه ومولده ونسبه :

هو شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي البغدادي الرومي ولد ياقوت الحموي سنة (٥٧٤هـ / (١١٧٨ م) أو (٥٧٥هـ / ١١٧٩م) اذ قال المنذري الذي عاصره وسمع منه: "سمعته يقول مولدي سنة اربع أو خمسة وسبعين يعني وخمسمائة ببلاد الروم". وذكر هذا التاريخ معظم من ترجم له[٣].

ويبدو على الارجح ان مولده في حدود ٥٧٥هـ / ١١٧٩م لان ياقوت الحموي قال في ترجمته لنصر بن الحسن بن جوشن بن منصور (ت:٥٨٨هـ ١١٩٢م) : "وقد ادركته صغيراً ولم القه وقال في ترجمة المبارك بن المبارك (ت ٥٨٥هـ ١١٨٩م) : " وقد ادركته صغيراً ولم القه الا انني لم اره لصغر السن حينئذ".

ولد ياقوت الحموي في بلاد الروم الأناضول الحالية ومن هنا جاءت تسميته بالرومي، وياقوت اسم كانت العرب تطلقه على الرقيق ولما كان مجهول اسم الأب الرومي، فقد جعلوه عبدًا من عبيد الله، ومنذ ذلك أصبح اسمه ياقوت بن عبد الله الرومي، ثم لحق الحموي للدلالة على اسم مولاه الذي اشتراه.

ثانياً : نشأته

منذ بدايات طفولته الأولى وقع في الأسر ، وبيع في سوق العبيد في بغداد، فاشتراه تاجر يعرف بعسكر بن أبي نصر إبراهيم الحموي فعاش كرقيق حتى سن العشرين، حيث أدخله عسكر مدرسة يتعلم فيها الكتابة، لينتفع به في ضبط تجارته، وكان عسكر هذا لا يحسن الخط، ولا يعلم شيئًا سوى التجارة، ولما كبر ياقوت قرأ شيئًا من النحو واللغة، وأصبحت اللغة العربية لغته الأم، ونال تعليمًا إسلامياً جيدًا، وكان سيده يعتمد عليه في متاجره؛ وذلك بسبب أمانته واستقامته، فكان ياقوت يتردد إلى كيش جزيرة تقع في وسط الخليج العربي- وعمان وتلك النواحي ويعود منها إلى الشام[٤] .

لقد كانت لياقوت الحموي رغبة كبيرة في اكتساب العلم وتحصيله، فمع كونه عبدا أسيرًا في يد سيده إلا أنه أصر على التعلم؛ ليصبح من أشهر جغرافيي الإسلام.

أعتقه سيده عام (٥٩٦هـ / ١١٩٩م) ، وبذلك أصبح حرًّا، ولكن لم يلبث أن دب بينهما خلاف، فترك ياقوت العمل عنده واحترف مهنة استنساخ الكتب وبيعها ببغداد، وقد أفاد من ذلك كثيرًا إذ أتيحت له فرصة الاتصال بعدد من مشاهير الأدباء والرواة، ثم عاد الوئام بينه وبين سيده القديم إلى عهده السابق، فاستأنف ياقوت أسفاره التجارية، وعند عودته من إحدى الرحلات وجد سيده قد مات بعد أن أوصى له ببعض ثروته، فعاد لتجارة الكتب فترة من الزمن، ولكنه لم يلبث أن بدأ في تجواله في عام (٦١٠هـ / ١٢١٣م)[٥]

ثالثاً : وفاته :

عد رحلة طويلة مليئة بالعذاب والتنقل من بلدة إلى أخرى هربًا من جحيم التتار ، استقر المطاف بياقوت الحموي في حلب عند الوزير ابن القفطي، الذي أكرمه وأحسن ضيافته، وظلَّ بها إلى أن توفي في رمضان عام (٦٢٦ هـ / ١٢٢٩م) ، وقد أوصى بوقف كتبه ببغداد، وكلف صديقه المؤرخ ابن الأثير بتنفيذ وصيته ، وأجمع كل من ترجم لياقوت أنه توفي في سنة (٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م) وأنه لم يتجاوز الخمسين عاماً، حيث توفي في العشرين من شهر رمضان ، وقد قال ابن خلكان أنه توفي يوم الاحد الموافق (٢٠ أب)[٦] .

رابعاً : صنعته :

توسع ياقوت الحموي في رحلاته منذ عام (٦١٠هـ / ١٢١٣م) فاتجه إلى آسيا الصغرى وخراسان، منطلقا من تبريز والموصل، قاصدًا بلاد الشام ومصر أولاً، وبعد ثلاثة أعوام اتجه مرة أخرى إلى دمشق، ثم غادرها إلى حلب فأربيل فأورمية فتبريز، ومنها قصد إيران الشرقية، وأمضى فى نيسابور حوالي العامين، ثم غادرها إلى هرات و سرخس إلى أن بلغ مرو وقد أمضى ياقوت الحموي في مرو ثلاثة أعوام ، باحثًا في مكتبتها الشهيرة، ولا سيما أن الأمر كان ميسورا له، فكان يطالع أكثر من مائتي كتاب في وقت واحد، والغالب أنه كان يدفع رهنا للنادر منها، ولكن

أكثرها كان يتوفر له دون رهن ويتحدث ياقوت الحموي عن مرو قائلاً : وقد أخرجت مرو من الأعيان وعلماء الدين والأركان ما لم تخرج مدينة مثلهم؛ منهم: أحمد بن محمد بن حنبل الإمام، وسفيان بن سعيد الثوري .. وغيرهم"، ويتحدث عن مكتبات مرو قائلاً: "فكنت أرتع فيها وأقتبس من فوائدها ، وأنساني حبها كلَّ بلد وألهاني عن الأهل والولد، وأكثر فوائد هذا الكتاب وغيره مما جمعته فهو من تلك الخزائن" [٧].

بعد ذلك تهيأ ياقوت لزيارة خوارزم فقدم وصفًا رائعًا للمدينة ونهرها جيحون فيقول : "وما ظننت أن في الدنيا بقعة سعتها سعة خوارزم وأكثر من أهلها، مع أنهم قد مرنوا على ضيق العيش والقناعة بالشيء اليسير، وأكثر ضياع خوارزم مدن ذات أسواق وخيرات ودكاكين، وفي النادر أن يكون قرية لا سوق فيها، مع أمن شامل وطمأنينة تامة، والشتاء عندهم شديد جدًّا ؛ بحيث إني رأيت جيحون نهرهم وعرضه ميل وهو جامد، والقوافل والعجل الموقرة ذاهبة وآتية عليه"[٨].

ولكنه علم بخروج التتار عام (٦١٦هـ / ١٢١٩م) ، ثم اجتياحهم بخارى و سمرقند فهرب من وجههم، وفي طريقة مر بالري وقزوين وتبريز إلى أن بلغ الموصل، فدخلها فقيرًا معدمًا، ومنها كتب إلى الوزير ابن القفطي في حلب يرجوه العون، فأمده بما يُعِينُه، واستدعاه إلى حلب، وفي عام (٦٢٤هـ / ١٢٢٧م) توجه مرة أخرى إلى فلسطين ومصر، ثم قصد حلب[٩].

سادساً : مؤلفاته :

١- معجم البلدان : بدأ ياقوت الحموي في تحرير معجم البلدان عام ٦١٢هـ عندما كان بمرو، ثم ما لبث أن انصرف عنه تحت وطأة هجمات جنكيز خان ولما استقر به المقام في الموصل عاد إليه، فأتمه عام ٦٢١هـ، وقد تميز ياقوت بعنايته بضبط أكثر ما أورده من الأعلام الجغرافية، فأعان ذلك على صحة قراءتها، ومن هنا غدا مرجعه من أوثق المصادر في هذا المضمار ، أما عن سبب تأليفه لهذا المعجم أنه كان ذا يوم في مجلس صاحب مرو وأميرها ، وذُكِرَتْ كلمة (حباشة)، فذكر البعض أنها بالفتح، وذكرها آخرون بالضم ، وكان هذا رأي ياقوت، وأراد أن يتثبت من صحة مقولته، فانطلق يبحث عنها بين الكتب، فكان ذلك حافزا له إلى هذا العمل الموسوعي العظيم[١٠].

وتظهر أهمية هذا الكتاب في عرضه لآراء ونظريات العلماء الذين يذكرهم بصورة واضحة ومنهجية سليمة، مع كون هذه النظريات متناقضة أو مختلفة فيما بينها، أما عن منهجه فيعد منهجًا فريد؛ لأنه جمع بين اللغة والتاريخ والجغرافيا، ففي كل فقرة مخصصة لاسم مكان يقوم ياقوت أولاً بتثبيت شكل كتابته ولفظه واشتقاق الكلمة ، وأشكال النسبة التي قد تشتق منها فقه اللغة وبعدئذ يتوصل إلى تفاصيل موضع المكان : كدرجة ،عرضه وطوله، ويذكر عند الكلام عن منطقة واسعة، خصائص طبيعتها، ومواردها الطبيعية وعمرانها بالناس، وموجزًا لأهم الأحداث التي شهدها هذا المكان الناحية الجغرافية للقا إلى التاريخية ويُعد كتابه "معجم البلدان" موسوعة

جغرافية كبيرة، فقد جمع فيه ياقوت الحموي كل ما يتعلق بما يؤرخ له من التاريخ والأخبار ووصف الأقاليم، ويذكر عظماء البلدة وشعراءها ورجال الدين فيها، كما يحاول ذِكْر سني ولادتهم ووفاتهم، فكان كتابًا فريدًا في بابه ونظمه، وقد ألفه على حروف الهجاء.

٢ ـ معجم الأدباء : ومن مؤلفاته أيضًا :كتاب (إرشاد الألباء إلى معرفة الأدباء)، يقول في أوله: " وجمعت في هذا الكتاب ما وقع إلي من أخبار النحويين، واللغويين، والنسابين والقراء المشهورين، والأخباريين، والمؤرخين، والوراقين المعروفين، والكُتَّاب المشهورين وأصحاب الرسائل المدونة وأرباب الخطوط المنسوبة المعينة، وكل من صنف في الأدب تصنيفا، أو جمع في فنه تأليفا، مع إيثار الاختصار والإعجاز، في نهاية الإيجاز" . وهو ما يعرف بـ معجم الأدباء[١١].

٣ـ كتب أخرى منها:

(معجم الشعراء)، و(المشترك وضعا المختلف صقعًا)، و(المبدأ والمآل في التاريخ)، و(مجموع كلام أبي علي الفارسي)، (عنوان كتاب الأغاني)، و (المقتضب في النسب) يذكر فيه أنساب العرب، و(أخبار المتنبي)، و(كتاب الدول).

المبحث الثاني

الجوانب الاقتصادية في كتاب معجم البلدان

شكل الجانب الاقتصادي حيزاً كبيراً في كتاب ياقوت، إذ تناول جانباً مهماً في تاريخ الاقتصاد الإسلامي وهو الضرائب من (جزية وخراج) ، إذ تحدث عنها في أيام الرسول صلى الله عليه واله وسلم في أراضي الجزيرة العربية التي اختلفت من منطقة لأخرى حسب طبيعة فتحها (صلحاً، أو عنوة) وفرضت على أهل الذمة فيها كما تطرق الى الضرائب وكيف كانت قليلة ايام الرسول (ص)، وكيف زادت تلك الضرائب أيام الخلفاء الراشدين وكيف تغيرت أيام فتوحاتهم، وتحول بعضها الى ضرائب عشري ولم يتطرق كثيراً إلى الضرائب في عهد الأمويين والعباسيين وتحدث عن الأوقاف في صدر الاسلام، ولم يتعرض لها فيما بعد ذلك إلا نادراً ووضح لنا طبيعتها فمنها الوقف الذري العائد بالمنفعة الشخصية، والوقف الخيري العائد بالمنفعة العامة .

واهتم الحموي بالإقطاعات التي منحها رسول الله (ص) والخلفاء الراشدون وعلى رأسهم عثمان بن عفان لذوي الشأن في الدولة ورجالاتها المهمين لكنه لم يهتم كثيراً بالإقطاعات في أيام بني أمية.

وقدم تفصيلات واضحة حول الثروات والمنتجات الزارعية المتواجدة في معظم المواضع مثل: الجزيرة العربية والعراق ومصر وبلاد الشام والأندلس وشمال

إفريقية وبلاد الخزر وغيرها من المناطق، فوقف على طبيعة النشاط الزراعي في كل منطقة وأشهر المحاصيل الزراعية فيها مثل الزيتون والقطن والأرز والزعفران والأشجار المثمرة مثل التفاح والعنب والتين وقصب السكر وغيره وذكر بشكل بسيط الثروة الحيوانية إذ لم يعرها اهتماما كبيراً كالحياة الزراعية، فأشار إلى تفاوت توزيع الثروات الحيوانية في مناطق الجزيرة العربية والعراق ومصر وبلاد الشام وبلاد خوارزم ،وغيرها من خلال توفر المراعي والمواشي والأغنام والأبقار والأسماك في تلك المناطق، كما ذكر العديد من الطيور مثل الوطواط، والقليلة والفجاج... وغيرها[١٢].

وذكر أهم الثروات المعدنية التي تشتهر بها المناطق كالمعادن مثل الياقوت والذهب والفضة والنحاس والحديد وغيره وذكر بعض أنواع الصناعات سواء كانت قائمة على لزراعة أو الحيوانات أو المعادن مثل صناعة النسيج وأدوات الحرب وصناعة السكر والورق وغيرها.

ولأنه كان تاجراً فقد اهتم بذكر الطرق التجارية والأسواق والموانئ والوكلاء التجاريين، وتغير حال بعض المناطق تجارياً بانتهاء دورها نتيجة فقدان الأمن وتغير طرق التجارة ، كما تطرق الى أهم الصادرات والواردات لكل بلد سواء كانت من المحاصيل الزراعية ، أو الثروة الحيوانية أو الصناعات أو المعادن، وأشار إلى أشهر الأسواق التي كانت موجودة قديماً واندثرت بعد ذلك معتمداً على المؤلفات القديمة، كما وصف الأسواق التي كانت معروفة في أيامه ، وتطرق بدرجة قليلة للمكاييل والأوزان، وفسر بعض المصطلحات مثل الصاع والفرسخ والذراع والرطل والقنطار[١٣].

اولا : موارد الدولة

١ ـ الضرائب (الجزية ، الخراج) :

أقر الإسلام الجزية على أهل الذمة في السنة التاسعة للهجرة، بعد فتح مكة ونزول آية الجزية في قوله تعالى: "قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم وتعني الجزية في الآية الكريمة الضريبة على أهل الذمة سواء كانت ضريبة صاغرون" شخصية أو ضريبة أرض أو ضريبة عامة.

ويذكر الحموي في حديثة عن دومة الجندل وافتتحها خالد بن الوليد عنوة وذلك في سنة ٩هـ، ثم إن النبي (ص) صالح اكيدر على دومة وأمنه وقرر عليه وعلى أهله الجزية وكان نصرانياً [١٤].

وفي حديثه عن نجران يقول وفتحت نجران في زمن النبي في سنة عشر صلحا على الفيء وعلى أن يقاسموا العشر ونصف العشر"[١٥].

والشيء نفسه نراه عند حديثه عن جرش فيقول "وفتحت جرش في حياة النبي (ص) في سنة عشر للهجرة صلحاً على الفيء وأن يتقاسموا العشر ونصف العشر"[١٦].

وفي ترجمته لأيله يقول:" وقدم يوحنا بن رؤبة على النبي (ص) من أيلة وهو في تبوك فصالحه على الجزية، وقرر على كل حالم بأرضه في السنة ديناراً، فبلغ ذلك ثلاثمائة دينار، واشترط عليهم قرى من مر بهم من المسلمين، وكتب لهم كتاباً أن يحفظوا ويمنعوا فكان عمر بن عبد العزيز لا يزداد على أهل أيلة عن الثلاثماية دينار شيئاً ، ويشير الحموي إلى مقدار الضرائب المتحصلة من أيلة في أيامه فيقول "وخراج أيلة ووجوه الجبايات بها نحو ثلاثة آلاف ديناراً .

وعن صلح عقده رسول الله مع سكان مقنا على ساحل البحر الأحمر جنوب أيله قال: إن رسول الله (ص) صالحهم على أن يدفعوا له ربع عروكهم (أي ما يصطادون من السمك) وربع إنتاج ثمار حقولهم[١٧] .

يقول الحموي عن صلح رسول الله مع أهل البحرين حين بعث لهم العلاء بن الحضرمي فأسلم العرب "أما أهل الأرض من المجوس واليهود والنصارى فإنهم صالحوا العلاء وكتب بينهم وبينه كتاباً نسخته: "بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما صالح عليه العلاء بن الحضرمي أهل البحرين صالحهم على أن يكفونا العمل ويقاسمونا الثمر، فمن لا يفي بهذا فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، وأما جزية الرؤوس فإنه أخذ لها من كل حالم دينار"، وذكر أنه جاءت رسول الله (ص) جزية البحرين التي بلغت ثمانين ألف درهم[١٨].

اتضح مما أورده الحموي ان رسول الله فتح بعض المناطق عنوة وبعضها ،صلحاً، وفرض على أهل بعضها جزية رأس قدرت بدينار واحد عن كل شخص في السنة، أو أخذ منهم جزية عامة أو مبلغاً من المال عن كل سنة، ومنهم من قاسمهم انتاجهم وفرض نسبة منه للمسلمين، أو أخذ من السكان جزية رأس ومن أرضهم قسماً من انتاجها، إضافة إلى إلزامهم حق ضيافة المسلمين.

ويذكر الحموي إلغاء الدولة الإسلامية ضريبة بعض الثغور لتشجيع السكان على الصمود فيها – فيذكر فأشار إلى أسفيجاب فيما وراء النهر وكانت من أعمر بلاد الله وأنزهها ... ولم يكن بخراسان ولا بما وراء النهر بلد لا خراج عليه إلا أسفيجاب، لأنها كانت ثغراً عظيماً فكانت تعفى من الخراج وذلك ليصرف أهلها خراجها في ثمن السلاح والمعونة على المقام بتلك الأرض[١٩] .

٢- الوقف :

تحدث الحموي عن الأوقاف في صدر الاسلام، ولم يتعرض إليها فيما بعد ذلك إلا نادراً. فذكر أن مخيريق أحد كبار يهود بني النضير دخل الإسلام "وأوصى بأمواله

لرسول الله (ص) فجعلها صدقة ، وهي المثيب، والصافية والدلال ،وحسنى، وبرقة، والأعواف، ومشربة أم ، وقال في أثناء حديثه عن برقة" موضع بالمدينة من الأموال التي كانت إبراهيم ابن رسول الله . " وذكر أن رسول الله أوقف أرضاً صدقات رسول الله (ص) وبعض نفقاته على أهله منها قرب صنعاء في اليمن لرعاية المواشي فقال عن رحبة صنعاء وهي في الأصل لرحبة بن زرعه بن سبا الأصغر "جعلها رسول الله (ص) للحاملة والعاملة ثم للشاء"[٢٠].

ووصف قرية قفط في صعيد مصر فقال: "وهي الآن وقف على العلوية من أيام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، وليس في ديار مصر ضيعة وقف ولا ملك لأحد غيرها إنما ٢ الجميع للسلطان إلا الحبس الجيوشي، وهو ضياع وقرى وقفها أمير الجيوش بدر الجمالي"[٢١].

ثانياً : قطاعات الانتاج :

عرض الحموي إلى الحياة الزراعية والثروة النباتية في كثير من البلدان التي ترجم لها، وإذا نظرنا إلى بلدان شبه الجزيرة العربية ومواضعها فإننا نراه يذكر المناطق الزراعية في الحجاز ونجد والعروض واليمن، والغريب أنه لم يذكر شيئاً عن تهامة سوى في موضع واحد اسمه بحير تجري إليه المياه من الجبال فيه نخيل ويزرع فيه البقول والبطيخ[٢٢] .

ولم يُعر الحموي اهتماماً بالثروة الحيوانية، والسبب عائد اهتمامه بالأماكن وطبيعتها، وهذا هدفه من تأليف كتابه، ولقد ذكر في حديثه عن بلدان الجزيرة العربية حيوانات برية وأخرى مستأنسه وأشار إلى أماكنها التي اشتهرت بها، فذكر تربية الأبل والخيل والشاه في بلدة السوارقية ببادية المدينة المنورة ، من اللافت للانتباه اهتمام الحموي بالحيوانات البرية وبخاصة الطيور فهو يتحدث عن وجودها في أكثر من بلد، ففي تنيس بمصر أنواع كثيرة من الطيور ولها موسم يكون فيه من أنواع الطيور ما لا يكون في موضع آخر ، وهي مائة ونيف وثلاثون صنفا .

ولم يغفل الحموي في أثنار ترجمته للبلدان والمواضع ذكر المعادن التي توجد فيها وقد تفاوت ذكره لهذه المعادن حسب كثرة وقلة وجودها، وفي حديثه عن بلدان الجزيرة العربية.

وفي حديثه عن البلدان يقف الحموي على المواضع والأماكن التي اشتهرت باعتبارها موانئ ومرافئ تجارية ويتحدث عن التجارة والتجار فيها وعن سفرهم وطبيعة عملهم ووكلائهم فمن الموانئ التجارية على سواحل الجزيرة العربية ميناء الجار على ساحل الحجاز مقابل المدينة المنورة" وهي فرضة ترفأ إليها السفن من أرض الحبشة ومصر وعدن والصين وسائر بلاد الهند" ، ويذكر أن سكان الجار كلهم تجار[٢٣] .

والصناعة من الملامح الأولى التي يتشرفها من يقرأ معجم البلدان مما يدخل في مجال التاريخ الاقتصادي للدولة الإسلامية، كصناعة النسيج موضوع البحث سواءاً

الصوفية منها أو القطنية أو الحريرية ومالحق بتطور هذه الصناعات ان المعلومات التي بين أيدينا، والتي طالعنا بها ياقوت الحموي في كتابه معجم البلدان، حافلة بذكر إنتاج أنواع الملابس والنسيج، ويمكن القول أن النسيج كان من أبرز الحرف الصناعية، وقد توافرت لدينا من خلال دراسة هذا الكتاب ملاحظات كثيرة عن النماذج الصناعية المختلفة، ولكن يبقى النسيج صناعة مميزة حظيت بعناية استثنائية لدى ياقوت الحموي لما لها من مساس في الحياة اليومية وما يحتاجه الناس من الألبسة والأغطية والأفرشة.

شهدت العصور المختلفة حركة ازدهار في عمل الألبسة وصناعة الأنسجة، وقد اشتهرت معظم المدن الإسلامية في إنتاج أنواع مختلفة من الألبسة، وأطلقت على الألبسة والأنسجة أسماء عديدة، على أن أغلب ما كان ينسب إلى ذلك اللباس أسماء المدن نفسها، والتي اصطفت مزدحمة في كتاب معجم البلدان، وقد حشد لها ياقوت جل جهده واهتمامه، وتكاد لا تخلو مدينة من المدن الإسلامية التي ترجم لها الا وذكر اشتهرت به من صناعة النسيج أو غيره.

المبحث الثالث

الجوانب الاجتماعية والثقافية

لم يقتصر ياقوت الحموي في كتابه على المواضيع الجغرافية والاقتصادية بل وتناول الحياة الاجتماعية والثقافية التي مر بها حيث اهتم بذكر أهم العادات والتقاليد السائدة في المجتمعات الإسلامية التي كان يتنقل بينها، فذكر بعض السلوكيات المختلفة لأهل تلك البلاد، وترجم للعديد من علمائها لتلك المجتمعات، مما مكن القارئ معرفة الحياة الاجتماعية.

من المؤكد أن هذا المنهج مما يصعب تطبيقه والوفاء به في مواد المعجم كلها، وهو ما نبه إليه المؤلف في مقدمته. ويرتبط ذلك فقط بمدى أهمية المكان وبما يتوفر لديه من معلومات عنه، أما عندما تعوزه المعلومات عن بعض المواضع، فإنه يكتفي بما حصله عنها، وقد لا يتجاوز في بعضها السطر الواحد، وخاصة تلك المواضع التي اعتمد فيها على مصنفي المعاجم العربية كابن دريد الأزدي مؤلف «الجمهرة»، ومن تابعه كأبي عبيد البكري (المتوفى سنة ٤٨٧ه) والزمخشري (المتوفى سنة ٥٣٨هـ).

ونتيجة لهذا المنهج والنظرة الموسوعية لياقوت، فقد استوعب المعجم الكثير من العلوم والمعارف السائدة آنذاك، حتى غدا المعجم موسوعة ضخمة، ليس في الجغرافية فحسب، بل في اللغة والأدب والنحو والصرف والتاريخ... وأصبح الآن مصدراً لا غنى عنه في هذه العلوم، لأن جزءا كبيراً من المصادر التي نقل عنها

ياقوت هلكت في خضم المصيبة الكبرى التي اجتاحت العالم الإسلامي، ممثلة في غزو التتار. وليس أدل على ذلك من أن عشرات من دواوين الشعر العربي فقدت، واتجه الباحثون في الوقت الحاضر لإعادة جمع ما تبقى منها، كان التي (معجم البلدان) هو المصدر الوحيد لعدد غير قليل من قصائد تلك الدواوين

اولاً : الملامح الاجتماعية :

يورد ياقوت الحموي الحياة الاجتماعية في البلدان الاسلامية من خلال رحلاته ويصف المجتمعات التي مر بها حيث يقصد بالحالة الاجتماعية في بلد من البلاد ، ذكر طبقات المجتمع في هذا البلد من حيث الجنس و الدين و علاقة كل من هذه الطبقات بعضها ببعض، ثم بحث نظام الأسرة و حياة أفرادها و ما يتمتع به كل منهم من الحرية، ثم وصف البلاط و مجالس الخلفاء ، و الأعياد والمواسم و الولائم و الحفلات، و أماكن النزهة، و وصف المنازل و ما فيها من أثاث و طعام و شراب و لباس و ما إلى ذلك من مظاهر المجتمع كان الخلفاء الأمويون يعتمدون علي العنصر العربي الذي كان يكون السواد الأعظم من أفراد الشعب في بلاد الشام فلما ظهرت الدولة العباسية بمساعدة الفرس و تحول مركز هذه الدولة إلى بلاد العراق ، ساد العنصر الفارسي و اعتمد الخلفاء العباسيون علي الفرس دون العرب و أسندوا إليهم المناصب المدنية و العسكرية .

ويورد الحموي في معجم البلدان ما يوصف الحياة الاجتماعية حيث يقول " وقد جعلت القدماء ملوك الأرض طبقات فأقرت فيما زعموا جميع الملوك لملك بابل بالتعظيم وأنه أول ملوك العالم ومنزلته فيها كمنزلة القمر في الكواكب لأن إقليمه أشرف الأقاليم ولأنه أكثر الملوك مالا وأحسنهم طبعا وأكثرهم سياسة وحزما وكانت ملوكه يلقبونه بشاهنشاه ومعناه ملك الملوك ومنزلته من العالم كمنزلة القلب من الجسد والواسطة من القلادة، ثم يتلوه في العظمة ملك الهند وهو ملك الحكمة وملك الغلبة لأن عند الملوك الأكابر الحكمة من الهند، ثم يتلو ملك الهند في الرتبة ملك الصين وهو ملك الرعاية والسياسة وإتقان الصنعة وليس في ملوك العالم أكثر رعاية وتفقدا من ملك الصين في رعيته وجنده وأعوانه وهو ذو بأس شديد وقوة ومنعة له الجنود المستعدة والكراع والسلاح وجنده نو أرزاق مثل ملك بابل. ثم يتلوه ملك الترك صاحب مدينة كوشان وهو ملك التغزغز ويدعى ملك السباع وملك الخيل إذ ليس في ملوك العالم أشد من رجاله ولا أجرأ منه على سفك الدماء ولا أكثر خيلا منه ومملكته ما بين بلاد الصين ومفاوز خراسان ويدعى بالاسم الأعم وهو إيرخان[٢٤].

و كانت حياة العرب خالصة لهم يعيشون فى الفيافي والقفار لا يعرفون من مظاهر الترف والنعيم إلا القليل ويتداخل العرب والفرس تأثرت حياة العرب بالفرس وبحضارة الفرس فى الطعام والشراب والقصور والثياب ومظاهر البذخ والزينة فكانت بداية انبهار بهم ثم سرعان ما قلدوهم في أمور حياتهم فعاشوا مثلهم في القصور ووسائل الزينة والترف ومجالس اللهو فقلدوهم فى كل ذلك مما انعكس على حياتهم فظهرت الخلاعة والمجون نتيجة التأثر بحياة الفرس ويقول ابن ياقوت "

وكان للترك ملوك كثيرة وأجناس مختلفة أولو بأس وشدة لا يدينون لأحد من الملوك إلا أنه ليس فيهم من يداري ملكه. ثم ملك الروم ويدعى ملك الرجال وليس في ملوك العالم أصبح من رجاله، ثم تتساوى الملوك بعد هؤلاء في الترتيب، وقد قال بعض الشعراء[٢٥].

الدار داران إيوان وغمدان ** والملك ملكان ساسان وقحطان

والأرض فارس والإقليم بابل وال ** إسلام مكة والدنيا خراسان

والجانبان العلندان اللذا حسنا ** منها بخارى وبلخ الشاه توران

والبيلقان وطبرستان فأزرهما ** واللكز شروانها والجيل جيلان

قد رتب الناس جم في مراتبهم ** فمرزبان وبطريق وطرخان

في الفرس كسرى وفي الروم القياسر وال **حبش النجاشي والافراك خاقان

روي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه سأل كعب الأحبار عن البلاد وأحوالها فقال يا أمير المؤمنين لما خلق الله سبحانه وتعالى الأشياء الحق كل شيء بشيء فقال العقل أنا لاحق بالعراق فقال العلم أنا معك فقال له أنا لاحق بالشام فقال الفتن وأنا معك فقال الفقر أنا لاحق بالحجاز فقال القنوع وأنا معك فقالت القساوة أنا لا حقة بالمغرب فقال سوء الخلق وأنا معك فقالت الصباحة أنا لاحقة بالمشرق فقال حسن الخلق وأنا معك فقال الشقاء أنا لاحق بالبداوي فقالت الصحة وأنا معك. انتهى كلام كعب الأحبار و الله الموفق للصواب إليه المرجع والمآب [٢٦].

ثانياً : الملامح الثقافية :

كان الناس يجوبون ثلاث قارات سعياً إلى موارد العلم والعرفان ليعودوا إلى بلادهم كالنحل يحملون الشهد إلى جموع التلاميذ المتلهفين. أما في الغرب، فنافست قرطبة بغداد والبصرة والكوفة ودمشق والفسطاط، وأصبحت حاضرة الأندلس، سوقاً نافعة للعلم وقبلة لرجال الأدب، حتى جذبت مساجدها الأوروبيين، الذين وفدوا إليها لارتشاف العلم من مناهله والتزود من الثقافة الإسلامية، ومن ثم ظهرت فيها طائفة من العلماء والشعراء والأدباء والفلاسفة والمترجمين والفقهاء وغيرهم للوقوف على واقع الحياة الثقافية.

ومن سمات المشهد الثقافي في ذلك العصر، انشغال الناس بالعلوم الدينية، فظهر المتكلمون، وتكلم الناس في مسألة خلق القرآن، وتدخل الخليفة المأمون بذلك حين أوجد مجالس للمناظرة بين العلماء في حضرته، وذهب البعض للقول بأن المأمون أراد بعقد هذه المجالس إزالة الخلاف بين المتناظرين في المسائل الدينية وتثبيت عقائد من زاغوا عن الدين.

الخاتمة

الحمد لله الذي انعم على عباده بعبادته والشكر له سبحانه العظيم الذي من علينا لأتمام هذه الدراسة التي قد تكون محاولة من لوضع بصمة في مجال التاريخ وفي دراسة أحد أهم مصادرها " معجم البلدان " أملين ان نكون قد اشتملنا على جميع جوانبها وتفاصيلها ومن خلالها نستنتج :

أبو عبد الله، ياقوت بن عبدالله شهاب الدين البغدادي الحموي الرومي، جغرافي ومؤرخ من أصل رومي أو يوناني، ولد في مكان مجهول حوالي عام ١١٧٩م ، وتوفي في حلب بسورية عام ١٢٢٨م، اشتراه تاجر يدعى "عسكر" من حماة وهو بعد طفل لم يكن يجيد لغته الأصلية، حتى إنه كان من الصعب تحديد أصلها، ثم لقنه سيده الآداب والفقه الإسلاميين؛ إذ أراده أن يصبح كاتبًا وحاسبًا له في تجارته، وكان يصحبه معه في أسفاره، أو يوفده وحده في مهمات تجارية، حتى زار ياقوت مدنا إسلامية كثيرة، ثم أعتقه سيده وأبعده عن العمل، فاشتغل بنسخ الكتب فترة، ثم عاد إلى خدمة سيده، وسافر بتجارته مرة أخرى، فلما عاد منها وجده قد مات، فأخذ من تجارته نصيبه الذي مكنه من الاتجار لحسابه الخاص، وأخذ يتنقل بتجارته الجديدة بين البلاد، فزار مدن العراق والشام وتركيا وإيران والعراق.

يرتب الحموي المدن والبلدان في هذا الكتاب على أساس الترتيب الهجائي، ويذكر لمحة تاريخية عن كل مدينة، ولمحة عن موقعها والقلاع والمرافئ التي فيها، ولمحة عن سكانها، وخاصة المشاهير منهم، وهو من المصادر المهمة التي اعتمدت عليها الدراسة في الجانب الجغرافي.

وفي الختام الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وال بيته الطاهرين

قائمة المصادر

١. ابن المستوفي، ابو البركات، المبارك بن أحمد الأربلي (٦٣٧هـ / ١٢٣٩م)، تاريخ أربل، جزء، تحقيق: سامي الصقار، (د.ن)، (د.ط)، (د،ت).

٢. ابن خلكان أبي العباس شمس الدين احمد بن محمد بن ابي بكر (ت: ٦٨١هـ/ ١٢٨٢م)، وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان حققه: احسان عباس دار صادر، (بيروت، د.ت).

٣. الحموي، ياقوت بن عبدالله (ت: ٦٢٦هـ / ١٢٢٨م)، معجم البلدان ، تحقيق : فريد عبد العزيز الجندي، ط ٢ ، دار صادر، بيروت، لبنان ١٩٩٥.

٤. الحموي، ياقوت بن عبدالله (ت: ٦٢٦هـ / (١٢٢٨م)، معجم الادباء، تحقيق : احسان عباس، دار الغرب الاسلامي، (بيروت، ١٩٩٣).

٥ . حميدة ، عبد الرحمن حميدة ، أعلام الجغرافيين العربي ومقتطفات من آثارهم دار الفكر، دمشق، سوريا، ط٢ ،١٩٨٠م.

عفيفي ،محمد الصادق عفيفي، تطور الفكر العلمي عند المسلمين ، مكتبة العلوم للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٧٧ م.

٧ . ابو الليل ، رقية عبد الله أحمد أبو ليل ، ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبدالله بن عبدالله (ت٦٢٦ه/ ١٢٢٩م) وكتابه: معجم البلدان الأوضاع الاقتصادية : دراسة تاريخية ، جامعه النجاح الوطنية في نابلس، فلسطين ٢٠١١ .

٨. المنذري، زكي الدين ابو محمد عبد العظيم بن عبد القوي (ت: ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م)، التكملة لوفيات النقلة، تحقيق: بشار عواد معروف (بلا، د.ت)

الهوامش

(١) الحموي، ياقوت بن عبدالله (ت: ٦٢٦هـ / ١٢٢٨م)، معجم الادباء، تحقيق: احسان عباس، دار الغرب الاسلامي (بيروت، ١٩٩٣)، ج ٤، ص ١١٦٨.

(٢) ياقوت الحموي، معجم الادباء ، ج ١ ، ص ٤٦ .

(٣) المنذري، زكي الدين ابو محمد عبد العظيم بن عبد القوي (ت: ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م)، التكملة لوفيات النقلة، تحقيق: بشار عواد ،معروف (بلا، د.ت)، ج ٤ ، ص ١٣٣٧.

(٤)ابن خلكان أبي العباس شمس الدين احمد بن محمد بن ابي بكرت : (ت:٦٨١هـ / ١٢٨٢م) ، وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان، حققه: احسان عباس، دار صادر، (بيروت، د.ت)، ج ٤ ، ص ١٢٧.

(٥) حميدة ، عبد الرحمن ، أعلام الجغرافيين العربي ومقتطفات من آثارهم ، ط٢ ، دار الفكر ، دمشق، سوريا ،١٩٨٠م ص ٤٧٧.

(٦) ابن خلكان ، وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان ، ج ٦ ، ص ١٣٠.

(٧) الحموي، ياقوت بن عبدالله (ت: ٦٢٦هـ / ١٢٢٨م) معجم البلدان ، تحقيق : فريد عبد العزيز الجندي ، ط ٢ ، دار صادر، بيروت، لبنان ١٩٩٥ ، ج ٥ ، ص ٤٤.

(٨) المصدر نفسه ، ج ٢، ص ٣٩٦.

(٩) حميدة ، أعلام الجغرافيين العرب ، ص ٤٤٧، ٤٤٨.

(١٠) عفيفي ، محمد الصادق، تطور الفكر العلمي عند المسلمين ، مكتبة العلوم للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٧٧ ، م ، ص٢٨٥.

(١١) ابن المستوفي، ابو البركات، المبارك بن أحمد الأربلي (٦٣٧هـ / ١٢٣٩م) ، تاريخ أربل ، جزء، تحقيق: سامي الصقار، (د. ن . د. ط)، (د. ت) ، ج ١ ، ٣١٩.

(١٢) ابو الليل ، رقية عبد الله أحمد ، ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبدالله بن عبدالله (ت٦٢٦ه/١٢٢٩م) وكتابه: معجم البلدان الأوضاع الاقتصادية : دراسة تاريخية ، جامعه النجاح الوطنية في نابلس، فلسطين ، ٢٠١١ ، ص ٥٣.

(١٣) أبو ليل ، ياقوت الحموي ، ص ٥٤.

(١٤) ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٤٨٤ .

(١٥) المصدر نفسه ، ج ١، ص ١١٨ .

(١٦) المصدر نفسه ، ج ١، ص ١٣٠
(١٧) المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٢٤٥ .
(١٨) ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٢٤٨.
(١٩) المصدر نفسه ، ج ١، ص ١٨٣ .
(٢٠) ياقوت الحموي، معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٤٨٨ .
(٢١) المصدر نفسه ، ج ١، ص ٣٨٣ .

(٢٢) المصدر نفسه ، ج ١، ص ٣١٢ .
(٢٣) ياقوت الحموي، معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٣٣٥ .
(٢٤) ياقوت الحموي، معجم البلدان ، ج ٢، ص .٩٣
(٢٥) ياقوت الحموي، معجم البلدان ، ج ٢، ص ٩٣ .
(٢٦) المصدر نفسه ، ج ٢، ص٩٣.